

# تعرف على تاريخ انتشار المذاهب وهجرة الكتب



الثلاثاء 30 ديسمبر 2025 م 08:00

يقول القاضي ابن العربي الأندلسي المالكي (ت 543هـ/1148م) في كتابه 'قانون التأويل': "ولقد كنت يوما مع بعض المعلميين، فجلس إلينا أبي [الله]، فدخل علينا أحد السعاسرة وعلى يديه رُزْمة كُتب، فإذا بها من تأليف [أبي جعفر] السُّفُناني (ت 444هـ/1053م) شيخ [أبي الوليد سليمان بن حَلَفَ] الباقي (ت 474هـ/1082م). فسمعت جميعهم يقولون: هذه كتب عظيمة وعلوم جليلة جلبتها الباقي من المشرق؛ فصدقَت هذه الكلمة كَبِيَّ، وجعلوا يوردون في ذكره ويُصدرون، ويكونون أن فقهاء بلادنا لا يفهمون عنه ولا يعقلون!!!"

من ذلك المشهد المفعتم بتعظيم الراحلين في طلب العلوم العائدين إلى بلادهم بنفائس أوعيتها؛ تعلّقت ابن العربي الغيرة العلمية بفكرة ردة فعله على ما سمعه -من قُبَّالِيَّيِّ والده الوزير العالم محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي (ت 493هـ/1100م)- ما عَبَرَ عنه هو بقوله: "ونذرُت في نفسي طيّة (= نَيَّةً) لِئَنْ مَلَكُ أُمَّرِي (= بَلَغَتْ سَنَ الرِّشْدِ) لِأَهَاجِرَنَّ إِلَى هَذِهِ الْمَقَامَاتِ = حَوَّاضِرِ الْعِلْمِ بِالْمَشْرِقِ، وَلَأَدْفَنَّ عَلَى أَوْلَاءِ الرِّجَالَاتِ، وَلَأَتَمْرَسَنَّ بِمَا لَدِيهِمْ مِنْ الْمَقَالَاتِ!!"

تلك إذن ردة الفعل النفسية التي قابل بها ابن العربي الإشادة بالكتب التي جلبتها الإمام الباقي من المشرق، فدفعته -وهو فتى يافع- إلى رحلة علمية مشرقة مشابهة -غَرْضاً وأَفْدَأً- لرحلة الباقي أُنْفِقَ فيها 11 عاماً من عمره العاشر بالعطاء علماً وعملاً، وعاد منها إلى بلاده الأندلس سنة 496هـ/1103م بحصاد علمي وفِير حقق به أمنيته الأثيرة!!

وفي هذه المقالة، نرصد ظاهرة التأريخ لهجرة الكتب وانتقال الآراء والمذاهب من قطْر إلى آخر ومن عصر إلى عصر، كاشفين معالم هذه الظاهرة الثقافية الفريدة التي تُبَرِّز احتفاء المسلمين الشديد بكل كتاب جديد في فنه؛ مما جعلهم يَذَلُّونَ -في دواوين تواريختهم- أسماء وسير من نقلوا تلك المعارف والمصنفات، ناسين إليهم الفضل في السبق إلى تحقيق ذلك!

وهذا التوثيق الأصولي لجذور المعارف والتقصي لدركيَّة انتشارها الجغرافي يعُدُّ من متقدمات قراءة واستيعاب تاريخ الأفكار وتراثها تنقلاتها، ومن دواعي فهم أسباب ازدهار أو كساد بعضها في لحظة تاريخية معينة

ولعل هذا كان هو الدافع الرئيسي لأن تنشأ في تراثنا المعرفي مصنفات "الفهارس" و"الأثبات" و"المعاجم" و"الطبقات"، وغيرها من التصانيف المعرفية التي تحرى ضبط "سلسل توريد" أصول ومصادر الصناعات الفكرية، وتعقب أحوال حملتها من الرجال والنساء، وتعين موضع نشأتها وأولياتها في شتى الأنصار وتحولاتها وتأثيراتها في مختلف الأعصار

ومن ثمرات هذه العملية التاريخية معرفة كيف تتوالد حلقات العلوم، والوقوف على التطورات والتأثيرات الحاصلة فيها، وهو أمر مهم لعمليات التقويم والإصلاح والتجديد؛ فالوعي التاريخي بسُنْن تداول المعرف (ظهورها وضمورها) والمذاهب (ازدهارها واندثارها) يدفع لاستمرارية الإبداع والتطوير المعرفي، ولعل هذا من أَفْعَل مواريث تلك الخبرة المعرفية التي حرص على توثيقها مؤرخو الأفكار في الحضارة الإسلامية كما سلطالعه مبسوطاً في هذه المقالة!!

## دَوْافِعُ مِنْهَجِيَّة

يعود اهتمام مؤرخي الأفكار ورواد التاريخ الثقافي الإسلامي برصد أَوْلَيَات انتشار المعارف وهجرات الكتب وتحول الآراء والمذاهب -من مواطن أصحابها إلى مختلف الأقاليم والأنصار- لعدة أسباب؛ أهمها حِرْصُ المسلمين على اتصال السند، واعتزازهم بالرحلة ولقاء الأكابر، وتصنيفُهم لكتب طبقات علماء المذاهب والطوائف والمعارف، وتأريخُهم لأوائل العلوم والأشياء والأحداث

ومن ذلك أيضاً تأليُّفُهم لِمَا يَسْمُونُه "البرامَجُ" و"الفهارسُ" و"الأثباتُ" و"المعاجمُ" و"الشيوخُ"، وهي كتب يُؤْتَقُ فيها أحدهم -بذكر طُرْقِ الروايات والأسانيد- ما أَخْذَهُ من كتب علمية وعمَّن أَخْذَهَا من الشيوخ، وأين ومتى وكيف أَخْذَهَا؟ فهَذِهِ المصنفات كان لها الإسهام الأَنَّهُمْ في

التاريخ للمعرفة وانتقال الآراء والمذاهب بين الأعصار والأمصار] وهو ما يساعد الدارسين في تحديد نشأة الأفكار والمذاهب والفرق، والتعرف على مسارات انتقالها وسادتها انتشارها، ورصد تطور الحركة الثقافية والفكرية-في الأقطار الإسلامية- وما تولّد عنها من علوم وأعلام وأعمال]

مقدمة الفهرس في ذلك يتبناها قول ابن إسحق النديم (ت 380هـ/991م) في مقدمة 'الفهرست': "هذا فهرستُ كُتبِ جميع الأمم من العرب والعلماء، الموجود منها بلغة العرب وقلمها، في أصناف العلوم وأخبار مصنفتها، وطبقات مؤلفتها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم، وبلاع عمرائهم وأوقات وفاتهم، وأماكن بداناتهم ومناقبهم ومثابتهم، منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة!"

وَدَلَالَةٌ عَلَى أَعْمَيَةِ هَذِهِ التَّوْثِيقَاتِ وَالْأَسَانِيدِ؛ شَاعَتْ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ الْعَبَارَةُ الَّتِي نَقَلَهَا الْحَافِظُ ابْنُ حَمْرَانَ الْعَسْلَانِيُّ (ت 852هـ/1448م) - فِي *فَتْحِ الْبَارِيِّ*، عَنْ بَعْضِ الْفَضَلَاءِ، وَهِيَ أَنَّ الْأَسَانِيدَ أَنْسَابَ الْكُتُبِ! كَمَا يُبَيِّنُ الْعَنْوَانُ الَّذِي اخْتَارَهُ جَلَالُ الدِّينِ السِّيُوطِيُّ (ت 911هـ/1506م) لِأَلَّادِ كِتَبِ مَعَاجِمِ شِيَوخِهِ عَنْ حُضُورِهِ هَذَا الْبَعْدِ التَّارِيِّيِّ التَّوْثِيقِيِّ فِي أَذْهَانِ السَّلْفِ؛ إِذْ سَمَّاهُ: *أَنْشَابَ الْكُتُبِ* فِي أَنْسَابِ الْكُتُبِ!

ولذا اهتم المسلمون مبكراً بتأليف كتب "الطبقات" وكانت سلسلة رواة العلم معروفة محفوظة، ومحطات انتقاله مدونة، وخرائط انتشاره مرسومة بعناية ومؤرخة بدقة، و"براءات" امتداك أولية حمله ونشره في الأقاليم محفوظة بأسماء من تحملوا عبء ذلك، فما زالوا بذلك "فضيلة السبق" التي منحها قاضي القضاة المؤرخ ابن خلّakan (ت 1282هـ/681م) -في "وفيات الأعيان"- للخطاط الشهير محمد بن علي فهلهة (ت 328هـ/939م)، لأنّه طور طريقة الخط العربي حتى أصبح على صورته البدعة المعروفة اليوم، فكان أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين، وأبرزها في هذه الصورة، وله بذلك «فضيلة السبق» هو وأخوه" الكاتب الأديب أبو عبد الله الحسن بن علي بن مقلة (ت 338هـ/949م).

ولم يوثق علماؤنا أنساب كتبهم وسلسل مروياتهم فقط، بل تعودوا ذلك إلى توثيق حقوق وضع المصطلحات والمفاهيم العلمية! ومن ذلك ما نجده عند اللغوي أحمد بن فارس القزويني (ت 395هـ/1005م) حين ذكر قول ابن دريد الأزدي (ت 321هـ/933م) إن الأصمعي (ت 216هـ/831م) يُخطئ "قول العامة: **هذا فُجَانِشُ لِهَذَا**", ويقول: ليس بع عربي صحيح! فعلى ابن فارس: "وأنا أقول: إن هذا غلط على الأصمعي لأنه الذي وضع كتاب **الأجناس**، وهو أول من جاء بهذا اللقب (= المصطلح) في اللغة".

وكذلك فعل برهان الدين الأبناسي الشافعى (ت 1399هـ/1979م) -في "الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح"- لما تحدث عن معنى مصطلح "المدجج" في أنواع الحديث النبوى، فنَصَّ على أن الإمام "الدارقطننى" (ت 385هـ/996م). أول من سَقَاه العَدَجَةُ، وأول من صَنَّفَ فيه كتاباً سَقَاه "العدج" في مجلدٍ.

أما علم أوائل الأشياء والأعمال وبدايات الأحداث والمسعيات فقد يزّ فيه المسلمون وكتبوا فيه كتبًا منوعة، وله حضوره الجلّي في المصنفات التاريخية؛ فلإنسان بطبعه له اهتمام بذلك ونطّاع إلى معرفته، كما قال أبو هلال العسكري (ت 395هـ/1006م) في كتابه ‘الأوائل’ الرائد في هذا الباب: “وقد رأيت أكثر الخاصة وقيل العامة لهجّين (= مولعين) بالسؤال عن أوائل الأعمال، ومتقدمات الأسماء والأفعال، !!!”

## سُفَاءُ الْمُذَاهَبِ

دين يرى الباحث تراث مذهب فقهي أو فرقة فقير من الأقطار الإسلامية؛ ينحدر إليه بداهة أن ذلك التراث الفقهى والنظيرى والتاريخي قام به -في مبدئه- آلاف الفقهاء ومئات العلماء، والحقيقة أن ذلك الكم الهائل من المؤلفات والعلماء والمناظرات والنضال المذهبى يرجع في بداية أمره غالباً إلى شيخ العذهب الأول أو أحد تلاميذه الكبار وعاد بالعذهب، أو أن احلاً آخر هاجم من معاً ميلاد العذهب وتغرب في مصر من الأنصار فتنش فيه العذهب والعلم الذي انتبه

فقد هذه مصر كانت غارقة في الولع بثقافة الملائكة وقصص المواقع حتى قيل الله لها إماماً من أبنائها هو يزيد بن أبي حبيب النبوي (ت 128هـ/746م)، الذي يصفه الذهبي (ت 748هـ/1348م) - في "تاريخ الإسلام" - بأنه "أحد الأعلام" وكان أسود جيشاً وكان مفتياً أهل مصر! ثم يتحدث الذهبي عن الأئمة المعرفية التي حظي بها هذا الإمام الجبشي بإحداثه تحولاً تاريخياً في أرض الكنانة أصبحت به إحدى كبريات قلاع العلوم النقلية والعلقانية في عالم الإسلام؛ فيقول إنه "هو أول من أظهر العلم والمسائل [الفقهية] والحلال والحرام بمصر، وقتل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملائم والفتن!!"

وغير بعيد من الكوفة نفسها؛ نجد أن أول "من جلب رأي أبي حنيفة إلى البصرة" هو الفقيه يوسف بن خالد السقفي (ت 190هـ/806م)، وهو أيضاً حسب ابن حجر في "تهذيب التهذيب". يعود "أول من وضع كتاب الشروط"، أي علم الوثائق الذي يعتني بقواعد كتابة السجلات وتوثيق المعاملات المدنية

من الشام - التي نشأ فيها مذهب الإمام الأوزاعي (ت 157هـ/774م) - تحول الفقيه المحدث **صَعْدَةَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ** بن سلام (ت 192هـ/808م) "إلى الأندلس، فاستوطنهما في زمان عبد الرحمن بن معاوية (= عبد الرحمن الداخل ت 172هـ/788م) وابنه هشام (ت 181هـ/796م)؛ وهو أول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعي إلى بلاد الأندلس".

وفي المقابل؛ يقول الإمام الذهبي إن القاضي أبو زرعة الثقفي (ت 302هـ/914م) أدخل إلى بلاد الشام "مذهب الشافعى" (ت 204هـ/820م) [حين تولى قضاء دمشق وحكم به القضاة، وكان الغالب عليها قول الأوزاعي]. لقد كان هذا القاضي شديد الإخلاص لمذهب الشافعى "يتوالى عليه ويصانع"! ومن نصرته له أنه "شرط لمن يحفظ «مختصر العزنى» مئة دينار (أي نحو 16.6 ألف دولار أمريكي الآن) يهبه لها!" وكان رجلا غنيا "له مال كثير وضياع (= عقار وأراض) كبار بالشام".

## رصد دقيق

ولم يتحقق انتقال المذهب الشافعى إلى العراق المجاور للشام إلى دفع أموال لانتشاره كما فعل القاضي الثقفي في الشام؛ فقد قام بالمهمة الفقهية أبو عاصم الأنطاطي (ت 288هـ/901م) الذي يخبرنا تاج الدين السبكي (ت 771هـ/1370م) -في طبقات الشافعية الكبرى- بأنه أخذ المذهب عن تلميذه الشافعى إبراهيم العزنى (ت 264هـ/883م) والربيع المرادي (ت 270هـ/888م)، ثم "اشتهرت به كتب الشافعى ببغداد، وعليه تفقه شيخ المذهب [بالعراق] أبو العباس بن شریج (ت 306هـ/918م)".

ووفقاً للذهبي في "السير"؛ فقد وصل المذهب الشافعى إلى إقليم خراسان بواسطة الإمام محمد بن عبد الوهاب الثقفي (ت 328هـ/940م)، الذي قال إنه "هو أول من حمل علوم الشافعى ودقائق ابن سريح [من العراق] إلى خراسان". وأما إقليم ما وراء النهر (= آسيا الوسطى)؛ فقد عرف المذهب الشافعية على يدي أحمد بن الحسين الفارسي (ت 305هـ/917م) بعد أن "تفقه على العزنى" [فكان] أول من درس مذهب الشافعى يبلغ (تقع اليوم بأفغانستان) برواية العزنى".

ونحن نجد أحياناً تحديداً دقيقاً يرصد دخول هذا المذهب إلى مدن بعينها وليس الإقليم العام فحسب؛ فالذهبي ينص -في "تاريخ الإسلام"- على أن دخول المذهب الشافعى إلى آسيا فرایین -الواقعة اليوم بإيران- من خراسان كان بواسطة الحافظ أبي عوانة الأشْفَرِيَّانِي (ت 316هـ/928م)، فهو "أول من أدخل مذهب الشافعى وتصانيفه إلى آسيا فرایین، أخذ ذلك عن إبراهيم العزنى والربيع" المرادي.

كما منح السبكي فضيلة السبق لنشره تحديداً في مدينة نيسابور -وهي من حواضر خراسان- إلى أحمد بن إسحاق النيسابوري المعروف بالضبّغى (ت 342هـ/953م): "فإنه أول من حمل إليها علم العزنى" تلميذ الشافعى، والضبّغى هذا معن حلاهم الذهبي -في "سير أعلام النبلاء"- بلقب "شيخ الإسلام"!

وفي اليمن الذي عاش فيه الإمام الشافعى بِرَهَةً وغادره إلى العراق سنة 184هـ/800م؛ كان الفقيه إبراهيم الخداشى (ت 450هـ/1059م) أول من نشر مذهب الشافعى [هناك]... وكان [الخداشى] فقيهاً كبيراً؛ كما في "قلائد النحر" للطيب بامরمة الحضرى (ت 163هـ/1541م). وقد أرجع عفيف الدين الياافعى (ت 668هـ/1269م) -في "مرآة الجنان"- ظهور المذهب الشافعى باليمن إلى عدد "من الفقهاء الـِّدَّة" مورداً أسماءهم

## مغادرة للمنشأ

ولعل المذهبين المالكى والظاهري هما أجر المذاهب بتبني الانتشار؛ فرغم نشأتهما بالشرق فإنهما سرعان ما غرّباً فكان ازدهارهما خارج منطقة الميلاد! ففي مصر غير بعيدة من المدينة المنورة كان الفقيه الشاب عبد الرحمن بن خالد الجمدي المصرى (ت 880هـ/163م)، "أول من دخل [إلى] مصر فقهة [الإمام] مالك" (ت 796هـ/179م)، وبه تفقه ابن القاسم (ت 191هـ/806م) قبل رحلته إلى مالك وكان من الصالحين، وهو "من قدماء أصحاب مالك وكان معجباً به وبفقهه"؛ كما في "تاريخ الإسلام" للذهبي

وفي بلاد الأندلس -التي هيمن فيها الدرس المالكى معظم تاريخها- نجد أن فقيهها زiad بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشطبون (ت 193هـ/809م) كان "أول من أدخل مذهب [شيخ] مالك إلى الجزيرة الأندلسية، وقبل ذلك كانوا يتلقون للأوزاعي وغيره"؛ طبقاً للذهبي -في "تاريخ الإسلام"- الذي يضيف أن ابن القاسم قال: "سمعت زiadاً فقيه الأندلس يسأل مالكاً"! كما كان الفقيه الأندلسي عيسى بن دينار (ت 212هـ/827م) "أول من أدخل الأندلس رأي ابن القاسم" الفقيه المالكى المصرى الأبرز

وكان سفير مذهب أهل المدينة إلى المغرب الأقصى (المملكة المغربية اليوم) الفقيه الزاهد دَرَّاس بن إسماعيل الفاسى (ت 357هـ/971م)؛ فهو -كما في "جذوة الاقتباس" لابن القاضى (ت 1025هـ/1616م)- "من أدخل مذهب مالك المغرب، فإنه كان الغالب على المغرب في القديم مذهب الكوفيين (= الحنفية)".

وتفصيلاً لما أجمله ابن القاضى، يقول مؤرخ المذهب المالكى عياض (ت 544هـ/1149م) -في ترتيب العدarak- إن الحنفية غلبو على إفريقية (= تونس) وما وراءها من المغرب [إلى أن دخل على بن زيدان (العبسى ت 183هـ/199م) [عبد الرحيم] بن أشرس والبهلول بن راشد (العبسى ت 183هـ/199م)، وبعدهم أسد بن الفرات (الفارسى ت 213هـ/828م) وغيرهم بمذهب مالك؛ فأخذ به كثير من الناس، ولم يزل ينشو إلى أن جاء سخنون (بن سعيد ت 240هـ/854م) فغلب في أيامه وفُصِّلَ حلق المخالفين"!!

وفي العراق الذي شهد نهضة مالكية في بعض عصوره؛ كان لدخول مذهبهم إلى البصرة قصة طريفة تسببت في نشأة علم "أصول الفقه"! ففي "مناقب الشافعى" للبيهقى (ت 458هـ/1067م) أن موسى بن عبد الرحمن بن فهدي قال: "أول من أظهر رأي مالك" [بالبصرة] أبي (= عبد الرحمن بن مهدي ت 198هـ/814م)؛ [فإنه] احتجم ومسح الحجامة ودخل المسجد فصلى ولم يتوضأ، فاشتد ذلك على الناس، وثبت أبي على أمره! وبلغه خبر الشافعى ببغداد، فكتب إليه يشكى ما هو فيه، فوضع له كتاب "الرسالة" وبعث به إلى أبي، فُسِّرَ به سروراً شديداً، قال موسى: فإني لأعرف ذلك الكتاب بذلك الخط عندنا"!!

## تحولات وفرص

أما المذهب الحنفى فربما كان أقل المذاهب الفقهية الباقيه معلومات بشأن وضوح مراحل انتشاره وأوليات نقل مصنفاته؛ ورغم ذلك فإننا

وأجدون فيها إضاءات يتوازي حجمها مع الحيز الجغرافي المحدود الذي انتشر فيه هذا المذهب تاريخيا، فقد أفادنا الإمام السيوطي -في حسن المحاضرة- بأولية خروج المذهب من العراق حيث نشأ وترعرع، فقال إن "الإمام أحمد (بن حنبل ت 241هـ/855م) .. كان في القرن الثالث [= التاسع الميلادي)، ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا في القرن الرابع [= العاشر الميلادي]."

ولا ينطلق السيوطي هنا من فراغ في تحديد بداية ظهور الحنابلة في المشهد العلمي خارج موطن نشأتهم العراق؛ إذ يقول الذهبي -في "الشّيّر"- مسجلاً الإسهام الحاسم للحنابلة في القرن الثالث البغدادي (ت 311هـ/923م) في جمع آراء هذا المذهب وصيانته من الاندثار: "ولم يكن قبله للإمام [أحمد] مذهب مستقل، حتى تبعه هو نصوص أحمد ودونها وبرهنها بعد [سنة] الثلاثمئة [= 300هـ/912م]."

وبحكم الجوار الجغرافي؛ كانت محطة الحنابلة للعراق غرباً هي الشام الذي سيُصبح معقلاً لهم الأهم حين يفقدون قلعاتهم الحصينة بالعراق جراء الاجتياح المغولي للبلاد 656هـ/1258م؛ فقد وصل التمدد الحنبلية إلى الشام -في النصف الثاني من القرن الخامس/الحادي عشر الميلادي- بواسطة الإمام عبد الواحد الشيرازي (ت 1093هـ/486هـ) الذي "قاد الشام فسكن بيته المقدس فنشر مذهب الإمام أحمد فيما حوله، ثم أقام بدمشق فنشر المذهب وتخرج به الأصحاب"؛ حسب ابن رجب الحنفي (ت 795هـ/1393م) في "ذيل طبقات الحنابلة".

وفي القرن السادس الميلادي؛ وصل إشعاع المذهب الحنبلية إلى مصر بعد أن أزال السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت 589هـ/1193م) الدولة الفاطمية، وعزّز ذلك ما عُرف به هذا السلطان من احتضان لأهل الحديث [ويُفهم من كلام السيوطي أن سبب تأخر دخول الحنابلة مصر هو تزامن خروجهم من العراق مع سيطرة الفاطميين عليها، ثم زال السلطان الفاطمي عنها "أواخر القرن السادس فترجعت إليها الأئمة من سائر المذاهب" الشّيّنة!]

وحيث ذكر السيوطي "مَنْ كَانَ بِمَصْرَ مِنْ أَئِمَّةِ الْفَقَهَاءِ الْحَنَابِلَةِ؟"؛ قال: "هُمْ فِي الْدِيَارِ الْمَصْرِيَّةِ قَلِيلٌ جَدًا، وَلَمْ أَسْمَعْ بِخَبْرِهِمْ فِيهَا إِلَّا فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ وَمَا بَعْدَهُ، وَأَوَّلُ إِمَامٍ مِنَ الْحَنَابِلَةِ عَلِمْتُ حَلَوَهُ بِمَصْرَ [هُوَ] الْحَافِظُ عَبْدُ الْغَنِيِّ الْمَقْدُسِيِّ (ت 600هـ/1203م)."

أما المذهب الظاهري؛ فقد نقله من العراق -حيث عاش إمامه داود الأصبهاني (ت 270هـ/884م)- إلى الأندلس -التي احتضنته قرطاجنة على حذرِ الإمام عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال القرطبي (ت 272هـ/888م)؛ فقد جاء في "تاریخ علماء الأندلس" لابن القرطبي الأزدي (ت 403هـ/1013م) أن ابن هلال هذا "رجل ودخل العراق، ولقي أبا سليمان داود بن علي القياسي [= داود الظاهري ولعل وُجُوهه بالقياسي]، هنا نسبة إلى القياس الفقهية لكونه يرفضه كما قالوا 'قدري' في نسبة من ينفي القدر) فكتب عنه كتبه كلها، وأدخلها الأندلس فأخذت به عند أهل وقته".

## اهتمام محاید

ولم يقتصر مؤرخو الثقافة والمعارف على التأريخ لبدايات انتشار المذاهب الفقهية، بل اهتموا كذلك برصد انتقال العلوم والعقائد وأصول الفرق والطوائف؛ فهذا الحافظ ابن حجر يترجم -في "السان الميزان"- للحدث الشيعي البارز إبراهيم بن هاشم القمي (توفي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/الثامن الميلادي)، فيقول إن "أصله كوفي وهو أول من نشر 'حدث الكوفيين' [= المرويات المنسوبة لأنّة آل البيت] يقُّمُ، روى عن [أصحاب الإمام] جعفر الصادق (ت 148هـ/765م)."

وفي المقابل؛ يفيينا الذهبي -في "تاریخ الإسلام"- بأن الإمام النضر بن شهاب (ت 204هـ/820م) كان نزيل مدينة مَرْو (تقع اليوم بتركمانستان)، وهو "أول من أظهر الشّيّنة بمَرْو وجميع خراسان"، وأن الحافظ حميد بن زنجويه الأزدي (ت 247هـ/861م). هو الذي أظهر الشّيّنة [يُشَّأ] (كانت تقع بتركمانستان)."

وفي كتاب "الثقات" لابن جِبَان (ت 345هـ/959م) أن أبا قدامه عبد الله بن سعيد السّرْخْسي (ت 241هـ/855م) "هو الذي أظهر الشّيّنة بسَرْخْسٍ (تقع اليوم بتركمانستان) ودعا الناس إليها"، كما كان الفهبل بن الأخطل الأزدي (ت 259هـ/873م) "أول من أظهر الشّيّنة بتست (كذا في المصدر؟ ولعلها: بُشْت التي هي اليوم لشكر كاه بأفغانستان)، ودعا إلينها الناس على عبادة دائمة وورع شديد!!"

وغالباً ما يكون ظهور الشّيّنة في بلد مرتبطاً بانتشار رواية الحديث النبوي الصحيح فيه؛ ولذلك رصد مؤرخو العلوم الشرعية أَوْلَيَاتِ في هذا الباب، فقال السبكي -في طبقات الشافعية- إن "أول من اشتهر بحفظ الحديث وعلمه بنيسابور -بعد الإمام مسلم بن الحجاج (ت 261هـ/875م)- إبراهيم بن أبي طالب (النيسابوري ت 295هـ/911م)"، الذي وصفه الذهبي -في "السير"- بأنه "إمام المحدثين في زمانه!"

وقد أَرْكَوْلَا نَسَأَةَ الْمَذَهَبِ الْمَعْتَزَلِيِّ فَقَالُوا إِنَّ "أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي [نَفْيِ] الْقَدْرِ بِالْبَصْرَةِ فَعَيْدَ الْجَهْنَمِ (ت 80هـ/699م)؛" كما في "طبقات الشافعية" للسبكي [ويحدثنا ياقوت الحموي (ت 1229هـ/1848م) -في "معجم الأدباء"- بأن مدينة رَمْحُشْ -التي أُنْجِبَتُ الإمام الزَّمَخشَريُّ المُعْتَزَلِي (ت 538هـ/1143م)- عَرَفَتْ فَكَرَ الْمَعْتَزَلَةَ عَبْرَ شِيخِهِ لِهِ مُحَمَّدَ بْنَ جَرِيرَ الْضَّبِيِّ (ت 508هـ/1114م)، كَانَ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَ إِلَيْهِ خوازِمَ مَذَهَبَ الْمَعْتَزَلَةَ وَنَشَرَهُ بِهَا، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْخَلْقُ لِجَلَالَتِهِ وَلَمْ يَدْهُبُوا بِمَذَهَبِهِ، مِنْهُمْ أَبُو الْقَاسِمِ الزَّمَخشَريِّ".

## فرق مغزية

وكان للمذهب الأشعري -الذي عَمِّ طوال الألفية الماضية أرجاء العالم الإسلامي- أئمّةً ناشرون؛ فالمحذث أبو ذر الهروي (ت 435هـ/1044م) كان "أول من حَقَّلَ الْكَلَامَ إِلَى الْخَرْمَ [الملكي] وأول من بَثَهُ فِي الْمَغَارِبَةِ"؛ كما في "درء تعارض العقل والنقل" لابن تيمية (ت 728هـ/1328م) الذي أدرك محوريته الهروي في نشر الأشعرية، فقال: "وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ كَانُوا يَحْبُّونَ فِي جَمِيعِهِمْ عَنْهُ الْحَدِيثِ وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ [= الأشعرية] ..، فَيَرْجِلُهُمْ مِنْهُمْ مَنْ يَرْجِلُ إِلَيْهِ الْمَشْرِقَ" فَيَأْخُذُهَا عَنْهُ [الاعتقاد إلى المغرب الأقصى]".

وفي "أزهار الرياض" للمقرئ (ت 1041هـ/1632م) أن قاضي المرابطين أبو بكر المرادي الحضرمي (ت 480هـ/1087م) "كان أول من أدخل علوم الاعتقاد إلى المغرب الأقصى"؛ ومعرفة أن المرادي هذا كان أَشْعَرِيَّ الْمُعْتَقَدَ

وعن حضور فرقة الخوارج في الغرب الإسلامي الذي كان أولى المناطق التي استطاعوا إقامة دولة فيها أواسط القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، بعد أن قوبلت في إقليمه شوكهم حيناً من الدهر؛ يخبرنا الحافظ ابن حجر -في تهذيب التهذيب- أن إمام التفسير عكرمة البربرى (ت 107هـ/726م) مولى ابن عباس (ت 68هـ/668م) كان أول من أحدث فيهم -أي أهل المغرب- رأى الصفرية (= فرقة من الخوارج) !!!

وبروي مؤرخ المذهب الإباضي يحيى بن أبي بكر الوازجلي (ت 471هـ/1078م) -في كتابه 'سير الأئمة وأخبارهم'- عن أحد أئمتهم أن "أول من جاء [بالمذهب الإباضية [إلى إفريقيا/تونس]. يَلْقَأُهُ بْنُ سَعْدٍ (الحضرمي) تَنْوِيَتْهُ 135هـ/752م)، قَدِمَ [من أرض البصرة] هو وعكرمة مولى ابن عباس وهم راكبان على جمل واحد حمل عليه زادهما؛ سَلَّمَهُ [يَدْعُ إلى الإباضية، وعكرمة] يَدْعُ إلى الصفرية!!"

وإن تعجب من وصول مثل عكرمة -كان ملازماً لترجمان القرآن ابن عباس ودفن بالمدينة- إلى ذلك الإقليم القصي والغصي؛ فإن الحافظ الذهبي يجيبك -في تاريخ الإسلام- بأن عكرمة كان "كثير التطاوف، كثير العلم، ويأخذ جوائز الأمراء"! كما يصفه ابن حجر بعرج الروح فيروي أن عكرمة ما عُلِمَ أن "أحداً ذَهَبَ بشيءٍ إلَّا بُدْعَابَةٍ كَانَتْ فِيهِ"؛ فِيَّا لَهُ مِنْ "خَارِجٍ" فنان!!

وكما وصل الإباضية إلى الغرب الإسلامي دخله الشيعة أيضاً؛ فهذا المؤرخ العماني الصهارى (ت 511هـ/1117م) يقول -في كتابه 'الأنساب'- إن علي بن الحسين التكلي هو "الذى أدخل مذهب أهل البيت في المغرب وانتهى إلى السوس (= جنوبى المملكة المغربية)...، وكان متوفياً في العلوم كثيًر الرواية عن رجال أهل البيت".

### ازدهار مقرئي

اقتصر الأنجلسيون في بداية أمرهم على قراءة أهل المدينة، وكان رائدهم في ذلك الغازى بن قيس القرطبي (ت 199هـ/814م) الذي "قرأ على [مقرئ المدينة] نافع (بن أبي لعيم ت 170هـ/776م) وضبط عنه اختياره، وهو أول من أدخل قراءة نافع إلى الأنجلس؛ كما في 'تاريخ الإسلام' للذهبي"

وبعد وفاة الغازى بقرنين ونيف؛ ازدهرت الدراسات القرآنية الأنجلسية بفضل جهود شيخ مُفْرَأَتِهَا أبي عمرو الداني (ت 444هـ/1053م)، وكانت الأنجلس عرفت القراءات -حسب ابن الجزري (ت 1430هـ/833م) في "غاية النهاية"- على يد الإمام الطَّلَمَنْكِي (ت 429هـ/1039م)؛ فقد رحل إلى المشرق "ورجع إلى الأنجلس بعلم كثير وكان أول من أدخل القراءات إليها".

وفي إفريقيا/تونس؛ كان محمد بن خيرون القروي (ت 301هـ/913م) "إماماً في القرآن مشهوراً بذلك، قدم بقراءة نافع على أهل إفريقيا وكان الغالب على قراءتهم حرف (= قراءة) حمزة (الكوفي ت 156هـ/173م)، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلَّا خواص، حتى قدم ابن خيرون فاجتمع إليه الناس"؛ وفقاً لابن الفرضي

ومن مفارقات تاریخ هجرة كتب القراءات إلى الأنجلس أن قصيدة 'جز الأمانى' التينظمها الإمام الأنجلسي القاسم بن فیروز الشاطبی (ت 590هـ/1194م) خارج إقليمه دخلت إليه على يد رجل آخر؛ إذ يحدها المقریبی (ت 845هـ/1441م) -في 'المقْفَى الكبير'- بأن المقرئ محمد بن محمد بن وضاح اللخی الإشیبی (ت 634هـ/1236م) كان "أول من أدخل القصيدة الشاطبیة في القراءات إلى الأنجلس، وعنه أخذها الناس هناك"!

ولم تكن الأنجلس تميز بين المذاهب والفرق في الاهتمام بتاريخ قدوم الكتب إليها؛ فقد حفظ لنا المؤرخون تاريخ قدوم تفسير الزمخشري المعروف بـ'الکَشَاف عن حِقَائِقِ التَّنْزِيل'، الذي أحدث زلةً في العالم الإسلامي منذ أن كُتب، إذ يفيدنا ابن حجر -في تفسير المتن به- بأن أحمد بن محمد الحضرمي الإشیبی المعروف بـ'رأس عَنْمَة' (ت 640هـ/1242م) "كان أول من أدخل 'الکَشَاف' بلاد الأنجلس، وكان حَجَّ بعد سنة 590هـ/1194م؛ أي أن تفسير 'الکَشَاف'- الذي اكتمل تأليفه 528هـ/1134م- مكث عقوداً تتعاطاه المجامع العلمية قبل أن يصل إلى الأنجلس!!

### خطة إمداد

وكان الإشیبی هذا ورفیق رحلته وبلدیه أبو بكر محمد بن أحمد الکانی الإشیبی (ت 608هـ/1211م) يشعرون بأنهما يؤدیان مهمة مقدسة لقطرهما الأنجلسی، فوضعا خطة تضمن إنجاز أهدافهما بكافأة

فقد أورد ابن عبد الملك المراكشي (ت 703هـ/1303م) -في 'الذيل والتكميل'- أنهما أدياً في حدود 595هـ/1199م "فريضة الحج ولقياً هنالك بقایا الشیوخة، وَقَدْلاً (= رجعاً) إلى الأنجلس واستصحباً فوائد جمة وغرائب كتب لا عهد لأهل الأنجلس بها، انتسحاها هنالك وتوافقاً على أن ينسخ أو يقابل أحدهما غير ما ينسخه رفique أو يقابلها استعمالاً لتحصيل الفائدة، حتى إذا ألقيا عصا التّسْبِير بمقدّرها إشیبیة انتسخ واحد منهما من قبل صاحبه ما فاته تَسْبِيرَهُ بتلك البلاد!

فكان مما جلبه: 'الکَشَاف عن حِقَائِقِ التَّنْزِيل'، 'جَنْعَة' (= تصنیف) جار الله [الخوارزمي] الزمخشري، وكان مما تولى نسخه أبو العباس (= رأس عَنْمَة).. من الأصل المحبّس (= الموقوف) بمدرسة القاضي الفاضل أبي علي عبد الرحيم [الپیاسی] (ت 596هـ/1200م).. بالقاهرة، وهو مسموع على مصنفه" الزمخشري ولذلك فإنه يُعد نسخة نفيسة متقنة ونادرة الوجود، مما يعطي قيمة خاصة للنسخة التي دخلت من هذا التفسير إلى بلاد الأنجلس، لاسيما أن كاتبها أبو العباس الإشیبی كان "تبیل الخط نقی الوراقه حسن الطریقة" في النسخ والکتابة؛ طبقاً للمراكشي

كما جلب هذان الرفيفان 'مقامات الزمخشري الخمسون، وشرح السنة' للبغوي (ت 511هـ/1117م)، و'تاج اللغة وصحاح العربية' للجوهري (ت 393هـ/1004م)، "وهو مما قابله أبو العباس [الإشبيلي] هذا، وكانت النسخة التي جلبها من هذا الكتاب في ثمانية أسفار بخط مشرقي!"

وينقل لنا المراكشي موقف بعض فقهاء الأندلس حينها من استجلاب تفسير الزمخشري؛ فيذكر أن الفقيه أبو الحسين محمد بن زرقون (ت 621هـ/1224م) انتقد على أبي العباس الإشبيلي هذا كلامه تفسير 'الكشاف' إلى الأندلس، لما يتضمنه من آراء مغترية، فكان يقول: "كانت الأندلس منزهة عن هذا وأشباهه! ولم يزل أهله على مرور الأيام -أعنيه عن النظر في مثله، وإن في غيره من تصانيف أهل السنة في التفسير عُذْية عنه".

والواقع أن ما ذهب إليه ابن زرقون من أن الأندلس ظلت "منزهة" عن الفكر الاعتزالي حتى جاء الإشبيلي بـ'الكشاف'؛ أمّا غير مسلم به لما ثبت من دخول هذا الفكر إليها منذ أوائل النصف الأخير من القرن الثالث، كما نجد في تراجم أعلام أبرزهم خليل بن عبد الملك القرطبي (ت 298هـ/910م) الذي كان يصدر بأراء المعتزلة بالأندلس فقد قال ابن الفرضي إنه "رحل إلى المشرق" ثم "أدخل مشهوراً بالقدر" (الاعتزال) لا يُتَّسِّرُ به!"

وهذه العجاهرة بالرأي الاعتزالي أضرت بصداقه خليل القرطبي لعلماء بينهم العدد الكبير محمد بن وضاح (ت 287هـ/901م) وجبلت له مشاكل جمة مع أهل البلاد، حتى إنه لما مات جاءت "جماعة من الفقهاء وأخرجت كتبه وأحرقتها" بالنار، إلا ما كان فيها [من] كتب المسائل (= الفقه)!! ويورد ابن الفرضي ما يفيد بكون خليل هذا أول أندلسي روى بالعراق التفسير المنسوب إلى الحسن البصري (ت 110هـ/728م) وأدخله الأندلس

ولعل هذا الظهور المبكر لفكرة المعتزلة في الأندلس هو الذي فتح الباب لاحقاً لشيوخ المذاهب الفلسفية فيها، حتى بلغ من اهتمام الأندلسيين بالفلسفة أنهم وثقوا لنا اسم من جاءهم بأحد أهم مؤلفاتها المشرقة وهو كتاب 'رسائل إخوان الصفا'؛ فقد نقل ابن أبي أثبيعة (ت 666هـ/1270م) -في 'عيون الأنبياء'، عن القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي (ت 462هـ/1071م) أن معاصره المهندس الطيب أبي الحكم عمر بن أحمد الكرماني القرطبي (ت 458هـ/1067م) "رحل إلى ديار المشرق" ثم رجع إلى الأندلس، وجلب معه الرسائل المعروفة بـ'رسائل إخوان الصفا'، ولا نعلم أحداً دخلها الأندلس قبله!!

## علاج وإنماج

يرى المالكية أن كتاب 'الموطأ' لإمامهم مالك هو أول كتاب ألف في الإسلام، وينقل القاضي عياض -في 'ترتيب المدارك' -أن علي بن زياد التونسي العبسي (ت 183هـ/799م) كان "أول من أدخل 'الموطأ' و'جامع سفيان' [إلى] المغرب"، وكان قد دخل الحجاز والعراق في طلب العلم. أما الغازى بن قيس القرطبي -المتقدم ذكره- فهو "أول من أدخل موطأ مالك" [فقد] شهد مالكاً وهو يُؤلف 'الموطأ'.. وانصرف إلى الأندلس بعلم عظيم نفع الله به أهله": حسبما يرويه عياض

ولا يمكن الحديث عن هجرة الكتب والروايات الديينية من المشرق إلى الأندلس دون ذكر محدثها بقى بن فؤاد (ت 276هـ/889م) الذي يقول ابن الفرضي إنه "رحل إلى المشرق فلقي جماعة من أئمة المحدثين وكبار الفسقين" [فكان] عذّة الرجال الذين لقيهم بقى وسمع منهم: مئتا رجل وأربع وثمانون رجلاً!

ثم عاد بقى إلى الأندلس "وكان مما انفرد [بحله من الكتب].. ولم يدخله سواه: 'صنف ابن أبي شيبة' (ت 235هـ/849م).. وكتاب 'الأم' للشافعى في الفقه" [وكتاب 'التاريخ' لذيلية بن حيّاط (البصري ت 240هـ/854م)]. وبجهود بقى هذا ومحمد بن وضاح -المتقدم ذكره- وما جلباه من كتب انتشرت مرويات السنة بالبلاد "فصارت الأندلس دار حديث وإنسان"!

وفي 'جذوة المقتبس' للجميد الأزدي (ت 488هـ/1095م) أن محمد بن معاوية المعروف بابن الأحمر (ت 347هـ/958م) "رحل قبل الثلاثمائة ودخل العراق وغيرها"، وقد رأه أبو سعيد بن يونس (ت 347هـ/958م) "بعصر في مجلس أبي عبد الرحمن النسائي (ت 303هـ/915م).. قبل سنة ثلاثة، ثم يقرر الجميد أن ابن الأحمر "هو أول من أدخل الأندلس مصنفه في السنن" (= سنن النسائي)، وحدث به وانتشر عنه!"

وبعيدنا الجميدى بأن السبب الأصلى لرحلة ابن الأحمر لم يكن تحصيل العلم بل ذهب في رحلة استشفائية قادته إلى الهند، لكنه "اشتغل في رجوعه بطلب العلم وروايات الكتب فحصل له علم جمّ وبورك له فيه!" وبحكمي الجميدى عن شيخه الإمام ابن حزم (ت 456هـ/1063م) أنه قال: "لم أزل أسمع المشايخ يقولون: إن سبب خروجه إلى المشرق كان أنه خرجت بأنفه أو ببعض جسده مُرْجَحٌ، فلم يجد لها بالأندلس فداً" [فأسارع الخروج إلى المشرق، فقيل له لا دواء لها إلا بالهند] فذهب إليها ووجد فيها العلاج!

وفي إطار رصد رحلة مدونات الحديث وعلومه من المشرق إلى الأندلس؛ يقول ابن بشكوال الأندلسي (ت 578هـ/1181م) -في كتابه 'الصلة'- إن عثمان بن أبي بكر الصدفي السفاقسي (ت 440هـ/1049م) وصل إلى الأندلس سنة 436هـ/1045م "بعد أن تجول بالشرق وأخذ عن علمائها ومحدثيها" [ودخل قرطبة في هذا التاريخ وأسمع الناس بها، وحدث عنه مشيّتها وعلماؤها، وتتوّفّ بسائر بلاد الأندلس]؛ وهو أول من أدخل كتاب 'غريب الحديث' للخطابي (البستي) (ت 388هـ/999م) الأندلس.

## تحقيق جماعي

وعلى ذكر 'الموطأ' و'سنن النسائي': فإن 'صحيح البخاري' بما ناله من مكانة لدى المسلمين كان وصوله إلى أي قطر إسلامي حريّاً بالتأريخ والتوثيق، ويخبرنا الذهبي -في 'الستير'- أن الإمام سعيد بن عثمان البراز (ت 353هـ/964م) "نزل مصر بعد أن أكثر الترحال ما بين النهرين: نهر جيدون ونهر النيل"، ولقي في رحلته الطويلة بخراسان محمد بن يوسف الفرّبّي (ت 320هـ/932م) الذي هو أوّل من روى 'صحيح البخاري' مأخذة عنه، وبذلك كان البراز "أول من جلب [كتاباً] 'الصحيح' إلى مصر وحدث به" فيه!

وجاء في كتاب 'الإمام العازري' لمؤرخ الثقافة التونسية حسن حسني عبد الوهاب (ت 1388هـ/1968م) أن أبي الحسن القابسي (ت 4013هـ/1013م) كان "من كبار الفقهاء المحدثين، قرأ في القیروان ثم رحل إلى المشرق، وسمع من علیة زواة الحديث، وهو أول من أدخل 'صحيح البخاري' إلى إفريقيا".

وبلغت نسخ من 'صحيح البخاري' من الدقة والضبط أنه كان يؤرخ لوصولها إلى مصر ما: ومن ذلك ما ذكره المؤرخ الناصري السلاوي (ت 1315هـ/1898م) -في كتابه 'الاستقصا'- من أن المحدث أبي العباس ابن ناصر الدرعي (ت 1129هـ/1716م) "كان معتنباً بشراء الكتب واقتائه، حتى قيل إنه اشتري بمصر في آخر حجاته [ما قيمته] مئة مثقال ذهب (= اليوم 18 ألف دولار أمريكي تقريباً) من الكتب، [كما] اشتري نسخة من صحيح البخاري بمكة بثلاثة وسبعين مثقالاً ذهباً، وهو أول من أدخل 'اليونينية' للغرب ولم تُر قبله ولا بعده"!

و'اليونينية'- المذكورة هنا في كلام السلاوي- هي نسخة 'صحيح البخاري' التي حققتها على عدة نسخ مجموعه من العلماء المختلفين التخصصات -بينهم الإمام ابن مالك الندوبي (ت 672هـ/1274م) -بإشراف الإمام المحدث شرف الدين اليونيني (ت 701هـ/1301م).

ولم يكن الاعتناء بالأصول الحديثية مقتصرًا على العلماء والمحدثين؛ فهذا السلطان المغربي العالم سيدي محمد بن عبد الله العلوي (ت 1204هـ/1790م) صنف مؤلفات في الحديث النبوي، وكان "أول من أدخل 'المسايد الأربعة' للغرب من الحرم الشريف"؛ حسبما أوردته الحجوي الفاسي (ت 1376هـ/1956م) في 'الفكر السامي'.

## أوليات الأمهات

بعد استقرار المذاهب الفقهية في الأماكن؛ صار لكل مذهب فقهياً كتبه المعتمدة التي جمع فيها رجاله فقه كبار علماء مذهبهم، وكان وصول هذه الكتب إلى أحد البلدان علامة فارقة في تاريخ انتشار المذهب فيه وفي إقليمه؛ فهذا عبد الرحمن بن دينار القرطبي (ت 816هـ/2001م) "كانت له رحلات استوطنه في إحداين المدينة [المنورة]، وهو الذي أدخل [إلى الأندلس] الكتب المعروفة بالمدينة فسمعها منه أخوه عيسى (بن دينار ت 212هـ/827م)، ثم خرج (= رحل) بها عيسى فلقي ابن القاسم [تلמיד مالك] فعرض لها عليه [بمصر]". وفقاً لابن الفرضي

وأما 'المدونة الكبرى' التي هي أم الفقه المالكي؛ فيقول القاضي عياض إن عثمان بن أبي الطشت القرطبي (ت 800هـ/267م) رحل إلى القیروان حيث سمعها من مدونها سخنون، وهو "أول من أدخل المدونة بالأندلس". وفي 'الاستقصا' للسلاوي أن أول من أدخل 'المدونة' إلى مدينة فاس هو الفقيه دراس بن إسماعيل الفاسي المذكور آنفاً

وبحسب عياض أيضاً؛ فقد رحل الفقيه الأديب محمد بن وازع الضرير القرطبي (ت 874هـ/985م) إلى المشرق، وكان من من سمع منهم ببغداد إمام المالكية بالعراق أبو بكر الأبهري (ت 875هـ/986م) "أخذ عنه كتبه وانصرف إلى الأندلس"؛ وهو أول من أدخل كتب الأبهري وابن أبي زيد (القیرواني ت 386هـ/997م) قرطبة.

كما نجد لدى السلاوي توثيقاً لتأريخ وصول 'مختصر خليل' الفقهية للشيخ خليل بن إسحق المالكي (ت 776هـ/1374م) -الذي صار عمدة أهل المذهب المالكي تدريساً وإفتاءً- إلى المغرب الأقصى؛ إذ يقول إن الفقيه محمد بن عمر ابن الفتوح التلمساني (ت 818هـ/1415م) هو "أول من أدخل (هـ) مدينة فاس والمغرب".

ولم يكن الشافعية بأبعد من المالكية في التأريخ لهجرات أمهات مذهبهم؛ فالسبكي يقول -في 'طبقات الشافعية'- إن مؤرخ مُرْجَع وفقيهها أحمد بن سيار المروزي (ت 881هـ/268م) هو الذي "حمل كتب الشافعية إلى فُرْقَةٍ وأعْجَبَ بها النَّاسُ"؛ وكان حريصاً على هذه الكتب جداً حتى إنه من النظر فيها لأحد الفقهاء الذين يرجع لهم الفضل بعده في نشر المذهب الشافعى بمروه

فمن مناقب الفقيه ومحدث عصره في مرو عباد بن محمد بن عيسى المروزي (ت 906هـ/293م) أنه كان "أول من حمل 'مختصر العزني' إلى مرو، وقرأ علم الشافعية على العزني والربيع وكان فقيها حافظاً للحديث". ويقول السبكي إن سبب رحلة عباد إلى مصر -حيث التقى كبار تلامذة الشافعى- أنه لما نظر في الكتب التي جلبها أحمد بن سيار -المتقدم ذكره- مؤنثه من نسخها، "فباء ضيعة (= عقاراً أو أرضًا) له يجنوِّرْد (= قرية بمُرْجَعِه) وخرج إلى مصر وأدرك الربيع وغيره من أصحاب الشافعى ونسخ كتبه، وأدرك من المشايخ والفقهاء ما لم يدرك غيره وحمل عنهم".

ومن كتب الشافعية المدرسية كتاب 'المهذب' لإمام مذهبهم في زمانه بالعراق أبي إسحق الشيرازي (ت 1084هـ/476م)؛ ويقول ابن العماد الحنفي (ت 1089هـ/1679م) -في 'شذرات الذهب'- إن دخول هذا الكتاب المهم إلى أرض اليمان كان بواسطة الفقيه التاجر الثري محمد بن عبدويه (ت 525هـ/1131م)، الذي "تفقه بالشيخ أبي إسحق ببغداد، وقرأ عليه كتابه 'المهذب'.. وهو أول من دخل به المذهب إلى اليمان!"

ومنها كذلك كتاب 'العزيز شرح الوجيز' للإمام عبد الكريم الرافاعي الشافعى (ت 1226هـ/623م)، وكان عبد الرحمن بن سعيد الهمданى (ت 1291هـ/690م) "أول من أدخله إلى الجبال" أي المناطق الوعرة باليمن؛ حسبما في 'قلائد النهر' للحضرمي ويدرك المؤرخ اليمني عبد الوهاب البزيعي (ت 1499هـ/904م) -في طبقات 'أحادي اليمان'- أن قاضي القضاة شعس الدين محمد بن أحمد بن صقر الغساني الدمشقي (ت 785هـ/1383م) "هو أول من أدخل كتاب 'المهذب' إلى اليمان"؛ وهذا المصنف من تأليف جمال الدين الإشبيلي (ت 772هـ/1370م) ويعدّ من نفائس كتب الفقه الشافعى

كان أهل الكوفة والبصرة هم رواد تدوين العلوم اللغویة بندوها وصرفها ومعجمها وآدابها، ولكن أغلبية هؤلاء الرواد مسلمين فإنه يبدو غریباً أن يدخل أول مجمع عربی - وهو كتاب 'العین' للخلیل بن الأردي (ت 175هـ/791م) - عاصمة العباسیین ببغداد لأول مرة على يد طبیب مسیدی هو دین بن إسحق العبادی (ت 260هـ/874م)!

فجمال الدين القسطنطینی (ت 646هـ/1055م) يفیدنا - في إخبار العلماء بأخبار الحكماء - بأن هذا الطبیب الماهر والمعترج البارز "كان فصیحاً في اللسان اليونانی وفی اللسان العربی، بارعاً شاعراً خطیباً فصیحاً لسناً، ونهض من بغداد إلى أرض فارس ودخل البصرة ولزم الخلیل بن الأردي حتى برع في اللسان العربی، وأدخل كتاب 'العین' ببغداد"!!

ولما كانت الرحلة إلى العصیرین (البصرة والکوفة) مجدًا يتنافس فيه طلبة العلم من الأقطار الإسلامية طلباً للأصول من مصنفات معارف اللغة وإعلاءً للسند فيها؛ فإن وصول تلك المؤلفات العراقية إلى الأندلس وجوارها المغاربي ظلّ محلًّاً احتفاءً وابتهاجً يسْتَقِيْصُ صاحبه أن يخَلُّ اسْفَهَهُ في صفحات التاریخ ومدونات التراجم والطیقات

ومن أوائل قُلْ شَدَّ الرحالَ من أهل الأندلس إلى العراق الندوی جودی بن عُثْمَان العَبَّاسِي (ت 198هـ/814م)؛ فقد "رَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ فَلَقِيَ [الإمامَيْنِ] الْكَسَائِيَ (ت 189هـ/805م) وَالْفَرَّاءَ (ت 207هـ/822م)..."، وَهُوَ أول من دَخَلَ الأندلس كتابَ الْكَسَائِيَ، وَكَانَتْ لَهُ حَلْقَةً وَأَدَبًّا أَوْلَادَ الْحُلْفَاءِ وَظَهَرَ عَلَى مِنْ تَقْدِيمِهِ"؛ كما في "الْتَّكْمِلَةِ لَابْنِ الْأَبَارِ الْقَضَاعِيِ (ت 658هـ/1260م).

ويخبرنا مؤرخ علماء الأندلس ابن الفرضي أن قاسم بن ثابت بن حزم العوافي (ت 302هـ/914م) "رَحَلَ مَعَ أَبِيهِ فَسُمِعَ بِمَصْرِ وَمَكَةِ..." وَعَنِي بجمع الحديث واللغة هو وأبوه، فأدخل الأندلس علماً كثیراً، ويقال إنهم أول من دخل إلينا: كتاب 'العین' للخلیل الفراہیدی

### استقطاب أندلسي

وانتقل إمام اللغة والأدب أبو علي القالی (ت 356هـ/967م) من العراق إلى الأندلس سنة 328هـ/940م فقدمها سنة 330هـ/942م بدعوة من خليفتها الأموي عبد الرحمن الناصر (ت 350هـ/961م)، وجلب معه علماً كثیراً وأخباراً فربدة وأشعاراً وافرة، أوصل ابن خير الإشبيلي (ت 575هـ/1179م) مؤلفاتها - في كتابه "الفهرسة" - إلى أكثر من أربعين عنواناً، بعضها في حوالی خمسين جزءاً! هذا "سوی ما تزال (= تنازل) عنه وأخذ بالقیروان منه"!!

وقد عَرَفَتْ كتبُ الْجَاحِظِ (ت 255هـ/869م) طریقَهَا إِلَى الأندلس عبر الأدیب الطبیب فرج بن سلام القرطبی (ت 273هـ/886م) الذي يقول ابن الفرضي إنه كان "معتّبًا بالأخبار والأشعار والآداب وكتابه 'الجاحظ'، ورحل إلى المشرق ودخل العراق فلقيه [الجاحظ] وأخذ منه كتاب 'البيان والتبيين'، وغير ذلك من مكتوباته، وأدخلها الأندلس رواية عنه".

وفي وقت قريب من نهاية القرن الثالث، قرر محمد بن علقة القرطبی (ت 325هـ/937م) أن يسجل اسمه في الأندلسين الخالدين من جملة كنوز المعرفة، فـ"رَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ وَأَخْذَ عَنْ [أَبِي الْحَسْنِ بْنِ سَلِيمَانِ الْأَخْفَشِ (ت 315هـ/927م)... كَامِلُ الْعَبَّرِدِ (ت 285هـ/898م)، وَصَارَ أَصْلُهُ (= نسخته الأصلية) مِنْ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةِ الْأَمْوَيِّ بِالْأَنْدَلُسِ الْحَكَمُ الْمُسْتَنْصَرُ بِاللَّهِ (ت 366هـ/977م). [وَقَدْ] قَالَ الْحَكَمُ: وَلَمْ يَصُحْ كِتَابُ 'الْكَاملِ' عَنْدَنَا بِرَوَايَةٍ إِلَّا مِنْ قَبْلِ أَبِنِ عَلْقَةِ!!" وفقاً لابن الأبار

أما كتب الإمام اللغوی أبي جعفر اللّٰذِی اس (ت 311هـ/923م) فقد قام بجلبها إلى الأندلس محمد بن مفرج الفعافری القرطبی (ت 371هـ/988م)؛ إذ رحل إلى المشرق فلقي أعلاماً منهم النداس الذي روی عنه من تأليفه: "إعراب القرآن" و"المعانی" و"الناسخ والمنسوخ" وغيرها، وكان بذلك "أول من دخل هذه الكتب الأندلس"؛ وفقاً لابن الفرضي

وفي نموذج آخر - معاکيس وجهةً وغايةً ومتابيق قيمهً ونتيجهً - لرحلة ابن الأحمر الأندلسي إلى الهند المذكورة آنفاً؛ يروي لنا الشنترینی (ت 542هـ/1147م) في كتابه "الذخیرة" - قصة مغامرات الوزیر والسفیر الشاعر أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادی الدارمی (ت 455هـ/1066م)، التي قادته طوال سنواتٍ من بلاط الهند الغزنویة شرقاً إلى قصور العباسیین ببغداد والمرداسیین بطب والفاطمیین بالقاهرة والصنهاجیین بالقیروان، وألقت به غرباً في إمارة أسرة ذي النون الھوّاریة بطایلۃ الأندلسیة؛ حيث وصلها سنة 454هـ/1065م فكان "أول من دخل كتاب 'الیتیمة' للثعالبی (أبی منصور ت 429هـ/1038م) عندهم" في الأندلس!!

### نحو ورسوخ

في كتابه 'المدارس الندویة'، أرخ العلامة شوقي ضيف (ت 1426هـ/2005م) لما أسمتها المدرسة الأندلسیة والمصریة في النحو، وكانت تلك الكتب اللغویة - التي رصّدنا تواریخ وصولها إلى الأندلس والغرب الإسلامی - هي البذرة الأولى لتلك المدرسة المتمیزة، التي خدمت لغة القرآن وارتقت بالدراسات اللغویة في تلك الأقطار انطلاقاً من مصر، لاسيماً أن ذلك تعزز بهجرة واسعة نحو المشرق اضطُرَّ إليها علماء الأندلس منذ بدأ حواضرها في التساقط في أيدي المسيحيین مع مطلع القرن السادس الهجري/الـ12م

ومثُلَ الأندلس في انتقال الكتب مصر؛ فممن نقل علوم اللغة إلى أرض الکنانة الإمام النحوی الولید بن محمد التمیمی المعروف بولید (ت 263هـ/877م)، كان "أصله من البصرة ونشأ بعصره، ورحل إلى العراق وعاد إلى مصر، وهو الذي دخل إليها كتب اللغة ولم تكن بها قبله، [فقد] لقى الخلیل [الفراہیدی] بالبصرة ولازمه وأخذ عنه".

ومن خدم اللغة في مصر أبو الطیب السبّتی المالکی (ت 695هـ/1300م) "نَزَّلَ قَوْصَ کَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ الْفَقِهَاءِ..."، وهو الذي أدخل شرح ابن أبي الریبع (السبّتی ت 688هـ/1289م) [الكتاب 'الإیضاح' لأبی علی الفارسی (ت 377هـ/988م)] إلى مصر؛ كما في 'الوافی بالوفیات' للصفیدی (ت 764هـ/1364م). والسبّتی هذا ومعه تلمیذه أبو حیان الأندلسی (ت 745هـ/1345م) وغيرهما من نزح إلى مصر بسبب

الاضطرابات في الأندلس؛ كانوا هم أساس النهضة النحوية والأدبية في مصر التي ورثت الزعامة الثقافية للعالم الإسلامي غداة أ Fowler نجم العراق والشام وتهاوي الأندلس!!

وكما حصل في العلوم النقلية؛ لم يغب التاريخ لانتقال كتب العلوم التجريبية -في أقطار الإسلام شرقاً وغرباً- عن دائرة رصد المهتمين بحركة الأفكار والعلوم وتنقل مصنفاتها بين البلدان والأقاليم البعيدة؛ ففي المجال الطبي يحدثنا ابن أبي أصيبيعة ضمن ترجمته -في 'عيون الأنباء'- للطبيب الأندلسي الكبير أبي العلاء بن زهر (ت 525هـ/1131م) عن أنه "في زمانه وصل كتاب 'القانون' لابن سينا (ت 428هـ/1038م) إلى المغرب" [وذلك] لأن رجلاً من التجار جلب من العراق إلى الأندلس نسخة من هذا الكتاب قد بولغ في تحسينها، فأتحف بها لأبي العلاء بن زهر تقريراً إليه ولم يكن هذا الكتاب وقع إليه قبل ذلك، فلما تأمله ذهب واطرجه" !!

ويذكر ابن أبي أصيبيعة أيضاً أنه في سنة 632هـ/1235م "وصل إلى دمشق تاجر من بلاد العجم (= فارس إلى آسيا الوسطى)، ومعه نسخة من شرح ابن أبي صادق (النيسابوري ت نحو 470هـ/1077م) لكتاب 'منافع الأعضاء' لجالينوس (ت 216م)، وهي صيحة من خط المصنف، ولم يكن قبل ذلك منها نسخة في الشام" !!